

## جيوبوليتيكال فيوتشرز: كيف فقدت إيران نفوذها على الشيعة العراقيين؟

الأربعاء 20 نوفمبر 2019 07:52 م

بعد إنشاء الدولة العراقية عام 1921، اختار الشيعة العراقيون إلى حد بعيد تجنب السياسة لعقود من الزمن، حيث تأثروا بالانقسام المرير الذي وضعهم في مواجهة السنة. ولطالما كان الشيعة العراقيون فخوريين بجذورهم اليمينية والحجازية، لكنهم لم ينجذبوا أبداً إلى القومية العربية. ومع ذلك، فقد استوعبوا التأثيرات القومية العربية في أعقاب الانقلاب العسكري عام 1958 الذي أطاح بالملكية الهاشمية، والأهم من ذلك، بعد الانقلاب البعثي المتطرف الذي أوصل "صدام حسين" إلى السلطة عام 1968. ولقد غمر النظام البعثي الشيعة العراقيين بالخطاب السياسي والثقافي القومي. وخلال زمن الحرب العراقية الإيرانية في الثمانينيات، تحول هذا الخطاب إلى دعاية معادية للفرسية.

وتجاهل الشيعة اضطهاد "صدام"، الذي توج بإعدام رجل الدين المعارض البارز "محمد باقر الصدر"، الذي أصدر مرسوماً دينياً يحظر العضوية في حزب البعث. وقاتل معظمهم من أجل العراق ضد إيران، وهي دولة ذات أغلبية شيعية. وقد لعب الشيعة، الذين يمثلون ثلثي سكان العراق، دوراً حاسماً في كسب الحرب، مما أدى في النهاية إلى زيادة الهوية الوطنية العربية لديهم، مع العداء على نطاق واسع لقيام دولة ذات أيديولوجية شيعية.

### تأسيس الهوية الطائفية

وبدأت انتفاضة 1991 في البصرة، التي انتشرت في جميع أنحاء جنوب العراق، من قبل جندي عراقي شعر بالإهانة من الهزيمة في حرب الخليج الأولى. وتسبب سحق الحرس الجمهوري الوحشي للانتفاضة الشيعية في تحول الشيعة إلى التفوق، وتحول تركيزهم من القومية العراقية إلى المخاوف الطائفية. وأدى سقوط نظام "صدام" في عام 2003 إلى نظام سياسي جديد قائم على التسوية الطائفية، التي أعطت الشيعة مكانهم داخل أروقة السلطة العراقية، ومنحتهم سيطرة ساحقة على الدولة ومواردها.

وأصبح فيلق "بدر"، الذي تم إنشاؤه في طهران عام 1982، الجناح العسكري لحزب سياسي شيعي يُعرف باسم "المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق". وقادت المنظمة، التي قاتلت إلى جانب إيران خلال الحرب العراقية الإيرانية، التمرد عام 1991، وانضم إلى التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة للإطاحة بنظام "صدام" في عام 2003، كما استفادت من الفراغ الذي خلفه انهيار الحكومة بعد ذلك. وسمح سوء التخطيط بعد الحرب من قبل الأمريكيين لإيران باستخدام "المجلس الأعلى للثورة الإسلامية"، والمليشيات الشيعية التي تمولها إيران، لسحق العراق واختراق مراكز قوته.

وعلى الرغم من الانتشار السريع للنفوذ الإيراني في العراق، وخاصة في الجنوب، لم ينسجم الترويج الإيراني لهوية طائفية بشكل جيد مع معظم الشيعة، الذين يعتبرون أنفسهم أحفاد قبائل كبرى تنحدر من الجزيرة العربية. وسعى "إبراهيم الجعفري"، قائد الحكومة الانتقالية في العراق في الفترة (2005 - 2006) إلى استبدال التراث العربي الشيعي العراقي بهوية طائفية ضيقة. ولطالما سعت المؤسسة الدينية الإيرانية للسيطرة على الشيعة العراقية واستبدال "آية الله علي السيستاني"، الذي لا يوافق على ولاية "الخميني"، بزعيم روجي موال. وقد أدت هذه السياسة إلى نتائج عكسية، وعلى الرغم من الدعم المالي الإيراني للطلاب في الأكاديميات الدينية في النجف، ظل الحجاج الإيرانيون غير مرحب بهم عموماً في المدينة المقدسة.

ومنذ عام 2003، ظهر ما يقرب من 70 من المليشيات الشيعية التي ترعاها إيران، ومعظمها تم شرعنته من قبل الحكومة في بغداد. وقد دعمت إيران هذه الجماعات مالياً، بما في ذلك قوات "الحشد الشعبي"، التي كانت نشطة في قتال تنظيم "الدولة الإسلامية". ولم تنجح الغارات الوهابية على الأضرحة الشيعية المقدسة في أوائل القرن العشرين، واستيلاء تنظيم الدولة الإسلامية على مساحات شاسعة من

الأراضي العراقية، في إقناع سوى أقلية شيعية فقط بأنه ينبغي النظر إلى إيران كحليف موثوق به. وعلى العكس، تعمق انعدام الثقة في إيران في العراق، وامتد عبر الخطوط الطائفية. وعلى الرغم من التصريحات التي لا تنتهي حول التضامن مع العراق، فإن إيران، التي لا تزال تتألم من ذكرى هزيمتها في حرب السنوات الثمانية، تساهم في عدم استقرار البلاد من خلال تزويد الميليشيات المختلفة بالأسلحة والمتفجرات. لذلك، فهم شيعة العراق أن إيران تريد أن يبقى بلدهم دولة ضعيفة ومجزأة.

## أزمة هوية

ولا تعد الشكوك حول إيران في العراق مفاجئة على الإطلاق، لأن الشيعة والسنة العراقيين، الذين ينحدرون من نفس القبائل، متجانسون ثقافياً وعرقياً. وينحدر معظم الشيعة العراقيين من البدو السابقين، تبنوا المذهب الشيعي في القرن التاسع عشر بعد تطور النجف إلى مدينة إقليمية ومركز اقتصادي في وسط العراق. ويعد الشيعة العراقيون جزءاً من الصراع الوطني بين العرب والفرس، الذي يعود إلى الفتح الإسلامي لبلاد فارس وسقوط الإمبراطورية الساسانية في القرن السابع. وقد اختفى هذا الصراع المتجذر منذ قيام "الخميني" بثورة إسلامية، لكن الشيعة يشتركون مع السنة في الاعتقاد بأن النفوذ الإيراني يضر فعلاً بالعراق. ويجادل شيعة العراق بأن إيران ترى العراق كقاعدة لها في الحرب مع الولايات المتحدة، وجزءاً رئيسياً من خطتها لتأسيس نفسها كقوة مهيمنة في الشرق الأوسط.

ومن الأمثلة على المظالم العراقية ضد الإيرانيين سياسات طهران بشأن إدارة المياه. فبعد عام 2003، قامت إيران بتسريع سياسة الشاه في بناء السدود وتحويل روافد نهر دجلة الرئيسية، مثل "الزاب الصغير" و"كارون"، التي تغذي نهر شط العرب جنوب بغداد. وتقوم إيران بإلقاء المخلفات في النهر، وهو المصدر الرئيسي للمياه في البصرة. ويلوم العراقيون إيران على نقص المياه وزيادة ملوحتها، وكذلك تدميرها المتعمد لصناعة صيد الأسماك في بلادهم.

ويشعر العديد من الشيعة العراقيين، الذين مزقتهم الهيمنة القمعية البعثية ثم هيمنة الميليشيات الجشعة المؤيدة لإيران، والتخلي عنهم من قبل الدول العربية الغنية في الخليج، بأنهم فقدوا شعورهم بالهوية. وهم يرون أنفسهم على أنهم سكان محاصرون، ويصورهم العرب السنة على أنهم غير جديرين بالثقة بينما يتلاعب بهم الإيرانيون. وفي الواقع، يريد عدد كبير من الشيعة العراقيين حل أزمة الهوية، ويبدو أنهم استقروا على الهوية القومية العربية. ويبدو أنهم فقدوا الأمل في أن نظام ما بعد "صدام" سيحررهم من القمع الذي عانوا منه، وخلصوا إلى أن الوقت قد حان لينتهي هذا النظام.

وخلال الشهر الماضي، اندلعت الاحتجاجات المناهضة للحكومة في العديد من المدن، بما في ذلك البصرة وبغداد. وقام المتظاهرون الغاضبون بإحراق صور "الخميني"، الذي يحظى باحترام من قبل الأحزاب السياسية والميليشيات الشيعية العراقية، وأشعلوا النار في القنصلية الإيرانية في كربلاء. وفي البصرة، هتفوا: "إيران برة، البصرة حرة". وفي الناصرية، جنوب شرق بغداد، أحرقوا مكاتب الأحزاب الموالية لإيران، وكذلك مقر "منظمة بدر".

ويكشف حجم ونطاق المظاهرات التي انتشرت في جميع أنحاء جنوب ووسط العراق عن حجم الغضب من النفوذ الإيراني في العراق، الذي أصبح مرادفاً للفساد والفقر والبطالة. وأدى ارتفاع البطالة بين الشباب وارتفاع مستويات الفقر في جنوب العراق الغني بالنفط إلى تأجيج الاحتجاجات. لكن من الواضح أن المظاهرات، التي استخدمت الحكومة القوة المفرطة لإخضاعها، تتعلق بأزمة البحث عن هوية حقيقية أكثر مما تفعله بشأن مستويات المعيشة. ويريد المتظاهرون استعادة كرامتهم وتحرير أنفسهم من قبضة إيران. ويرفض معظم العراقيين، سواء كانوا من العرب السنة أو الشيعة، أي صلة ثقافية مع جيرانهم الفرس، ويرون أن علاقتهم بإيران روحانية بحتة.

## إيران راسخة في العراق

وفي الأعوام السابقة، تحول الشيعة العراقيون إلى إيران على مضم. وكان عهد "صدام حسين" قد قطع اتصال العراق بالعالم الخارجي واتجاهاته التحررية. ومع ظهور ثورة المعلومات، نشط الشيعة العراقيون بعد عام 2003، وحاولوا كسر القيود الطائفية التي استخدمتها إيران لربط البلدين معاً. لكن بعد أن قدمت ملاذاً للمعارضين الشيعة في الثمانينيات، الذين أصبحوا حكام نظام ما بعد البعث في بغداد، تسيطر إيران على مراكز القوة في النظام السياسي العراقي وقواته المسلحة.

وفي هذا الصدد، لا يختلف العراق عن الدول العربية الأخرى. فعلى الرغم من الانقسام بين الجمهور والحكام الاستبداديين، يستمر هؤلاء الحكام في ممارسة السلطة في القمة، لأنهم على استعداد لاستخدام القوة المفرطة لمنع حدوث أي تغيير سياسي حقيقي. ويبرز المواطنون العراقيون من جميع الطوائف كقوة سياسية حقيقية، لكن هذه عملية طويلة ومؤلمة، ولا يمكن للمرء إلا أن يأمل في أن تنمو لتصبح غير قابلة للتدمير. وفي غضون ذلك، تبدو إيران في وضع جيد للحفاظ على سيطرتها على مراكز القوة في العراق لبعض الوقت.